بين علم النفس والاسلام

دكتور سيد أحمد عثمان *

أحمد الله الذى هدانا وعلمنا ، وجعلنا خلفاء وأمناء ، وأحمده سبحانه على أن بث فى قلوبنا من حب الاسلام وحب (الدعوة اليه) وحب أن نراه مبثوث فى ثنايا الحياة وراسخا فى أصولها ، متمكنا من جذورها ، وقائمة عليه أعمدتها وأركانها ما به نعمل بحرص ، وندعو بأمانة ، ونجاهد بصدق، فى سبيل أن تشرق شمس الاسلام - وهى متجددة الشروق أبدا فى أفق كل مجتمع مسلم ، ليعم نورها سبل ترقى الانسان وتزكيه ، بقدر ما يعمر وجدان الانسان وينقيه ٠

ثم أحمده جل ثناؤه أن وجدنا اخوة غيورين على أن يروا علم النفس فى عالمنا الاسلامى وقد أصبح ينتمى - بحق - الى مجتمعاتنا العلمية المسلمة٠ وقد تجلى ذلك فى اقتراح برز فى احدى كليات التربيـــة بالمملكة العربية السعودية بانشاء مقررين فى قسم علم النفس يكونان بداية لتأصيل علمى لاتجاه اسلامى فى علم النفس ، هذان المقرران هما :

أولا : الدراسات النفسية فى الفكر الاسلامى ٠

ثانيا : التفسير الاسلامى للسلوك ٠

وبدافع من الأمانة التى حملنا اياها كعاملين فى حقل العلم ، كمسلمين كان لابد أن ندلى بوأينا فى هذين المقررين :

أما بالنسبة الى المقرر الأول : فخلاصة رأى فيه :

١ - أنه ضرورى من حيث هو تمهيد تاريخى ، ومهاد فكرى لكل دارس مسلم فى علم النفس فى مجتمعنا ٠

(*) أستاذ علم النفس التعليمى بكلية التربية بجامعة عين شمس ٠

٢ ـ على أن يكون هذا الدارس عارفا ، أو ملما ، فى أقل تقدير ، بتاريخ الفكر الفلسفى القديم الذى تأثر به المفكرون المسلمون فيما تناولوه من دراسة فلسفية حول النفس ٠

٣ ـ وهذا الالمام ضرورى كذلك حتى يتبين الدارس ما أضافه المفكرون المسلمون من أفكار ، وآراء ، كانت نتاج فكرهم الدينى الاسلامى ٠

٤ ـ واننى لأدرك ما قد ينهض من اعتراضات حول الفكر الفلسفى ، بصفة عامة ، من اعتراضات ، ولكننى أرى أن الالمام بمعالم الفكر الفلسفى القديم ضرورة منهجية ، وحاجة تعليمية للدراسة العلمية السليمة للفكر النفسى لعلمائنا المسلمين ٠

٥ ـ غير أن من علمائنا المسلمين الاجلاء أولئك من كانت له أفكار ، وأراء ، وبصائر ٠ لها قيمتها النفسية التى لايمكن أن تنكر ، والتى نحتاج الى تعرفها ، وألفتها ، وابرازها ، وفهمها ، واتاحة المجال لها للتفاعل مع بناء فكرنا النفسى المعاصر ٠

٦ ـ وانه من الضرورى كذلك أن ندرس تلك الأفكار فى « اطارها التاريخى » ، أى ندرسها من حيث هى نبت زمانها ، وثبت أوانها ، لا نفرض عليها تصورا من عندنا ، فلا نقول ، مثلا ، « نظرية » نفسية عن فكر مسلم قديم ، اذ النظرية نتاج حديث جدا فى العلم الحديث ومناهج البحث فيه ٠ لهذا كنت شديد الحرص عندما تقدمت فى مؤتمر « علم النفس والاسلام » الذى عقد فى جامعة الرياض (الملك سعود حاليا) بكلية التربية فى أكتوبر عام ١٩٧٨ ، كنت شديد الحرص على أن يكون عنوان هذا المقرر الذى اقترحت ادخاله ضمن دراساتنا فى علم النفس هو ٠٠ الدراسات النفسية » لا النظريات النفسية ، عند المفكرين المسلمين ٠

٧ ـ وكذلك لا يمكن أن تكون دراستنا لفكر علمائنا المسلمين الاجلاء مقصودا به الاكتفاء به ، والاستغناء به ، عن الفكر النفسى المعاصر فى اتساعه ، وتجدده ، وتغيره ، بل فى تأزمه وتعثره ٠

٨ ـ كما أننا لا ينبغى أن نقف فى دراستنا للفكر النفسى لعلمائنا المسلمين

عند عصر بعينه ، ولا عند اتجاه بذاته ، بل تكون دراساتنا شاملة ، ومستغرقة للحديث ، الى جانب القديم (مثلا : ندرس ابن القيم ، وابن سينا بل أرى أن يكون للفكر النفسى لدى المفكرين المسلمين المعاصرين مكان فى هذه الدراسة ٠

٩ ـ وانه من الواضح مما سلف أن من يقدم على تدريس مثل هذا المقرر لا بد أن يستند الى أساس تاريخى رحب ، والى اهتمام جاد بالجانب النفسى لدى مفكرينا المسلمين ، مع تمكن من تاريخ علم النفس الحديث ذاته ، والمؤثرات الفكرية التى أثرت فى تشكيله وفى تطويره ٠

١٠ ـ وانه من الممكن أن يكون هذا المقرر على مستويين ، مستوى أولى، عام ، مبسط ، ولا بأس بأن يكون تدريسه فى مستوى الليسانس والبكالوريوس ، ثم مستوى آخر يكون أكثر تقدما ، وتعمقا ، وتفصيلا ، وتأصيلا فى نظراته وتحليلاته ٠

أما المقرر الاخر ، وهو « التفسير الاسلامى للسلوك » ، فأنت تذكر أن موقفى منه كان متحفظا جدا ، وقد أجملت لك رأيى فيه فى لقائنا القصير جدا ، والمركز جدا ، والمفيد جدا ، فيما أرجو ان شاء الله ، وقد كان رأيى أن يكون المقرر تحت عنوان : « التوجيه الاسلامى للشخصية » ، وسقت لك جانبا من رأيى ٠ وأكتب لك هنا خلاصة لجملة رأيى فى هذا الامر :

١ ـ ان أى تفسير للسلوك لابد أن يكون تفسيرا محدودا ، أى يركز على جانب ، أو بعد ، أو قوة ، فى الحياة النفسية للانسان ، ويحاول أن يتخذ منها محورا يدور حوله التفسير ٠ أما السلوك فى اتساعه ، وأما الحياة النفسية فى تعقدها وتعددها ، وسيولتها وتعمقها ، واستمرارها واتصالها ، فلا يمكن أن يدعى أى تصور « علمى » ، أو أية نظرية علمية أنها تفسرها فى جملتها ٠ أى أن التفسير العلمى للسلوك فى علم النفس هو بالضرورة تفسير نسبى ، من جهة ٠ ومتحيز لموقفه ، أو لموقعه ، أو لوجهة نظره ، من الجهة الأخرى ٠ فكيف يقدم الاسلام تفسيرا علميا للسلوك على هذا الوجه ؟ اننى لا أرى سبيلا الى هذا ما دمنا نلتزم ، ولابد ، بأن يكون التفسير الذى نقدمه له خصائص العلمية ٠

٢ ـ ثم نأتى الى مصطلح « السلوك » الذى ورد ذكره فى المقرر المقترح، فأقول : ان هذا المصطلح من أشد مصطلحات علم النفس المعاصر غموضا على الرغم من أنه • مع الأسف ، من أكثرها ، أو كان من أكثرها شيوعا ، هو مصطلح مبهم ، اذا وقفنا فى تعاملنا معه عند السلوك الظاهر ، اذ ليس السلوك الظاهر عند الانسان سوى مظهر ، أو معبر ، أو معبر ، عن أعماق ، وعمليات دينامية ، تاريخية ، وادراكية ، وواقعية ، ممـــــا لا يمكن فهمه لو اكتفينا ، ووقفنا عند السلوك الظاهر ، ثم اننا لو وسعنا مفهوم السلوك بحيث يستوعب كافة العمليات النفسية الداخلية ، الداعمة منها ، من ادراك وحكم وتقدير ، وتفكير ، وابداع ، وغير الداعمة من دوافع ، وتقويمات ، وتفصيلات ، وغيرها ، أقول : لو أننا وسعنا مفهوم السلوك ليشمل هذا كله، لوجدناه ، أى السلوك • وقد فقد معناه من شدة ما وسعناه • فمصطلح السلوك اذن هو مصطلح غير صالح أصلا لأن نضع له تفسيرا ، وخيرا يفعل علم النفس المعاصر اذ يعود الى توكيد ما كان مؤكدا سابقا من أن علم النفس هو علم الحياة العقلية •

٣ ـ ثم اننا حتى لو افترضنا أن تفسيرا علميا اسلاميا للسلوك ممكن تقديمه ، فكيف يكون موقف هذا التفسير من التفسيرات العلمية الأخرى فى علم النفس القائمة الآن ؟ هل نحاول التوفيق بينها وبينه ؟ هل نحاول نقضها به ؟ هل نفضله عليها ؟ وغالبا ما يكون الجواب على السؤال الاخير بالايجاب هو موقفنا ، وأن نفضل التفسير الذى نقدمه على غيره من التفســـــيرات • وعندئذ : أ ـ نعطى طلابنا درسا فى عدم الحياد العلمى الذى يجب أن يدربوا عليه ليكونوا علماء بحق ، و ب ـ نفتح ميدانا لتصاريح الاراء المعارضة • لتأخذ ذلك التفسير الاسلامى الذى نفضله ، وتحلله وتفنده ، وتنقده ، وتبرز ما فيه من نواقص ، وتبين ما فى التفسيرات العلمية المعاصرة الأخرى من جوانب قوة وتفوق عليه • وبذا نكون قد فتحنا بابا لكل طارق ، ولفتنا الى أفق لكل ناعق •

٤ ـ أما السبيل الذى أراه أسلم ، وأقوم ، وأهدى ، وآمن ، فهو ذو شعبتين ، أما الشعبة الأولى فهى أن ندرس علم النفس المعاصر من حيث هو علم له أصوله ، ومناهجه ، وطرائقه ، ومدارسه ، بل له أساليب نقده وتعديله الذاتية ، وأن نستوعب نظرياته ونتائجه ، استيعاب الواعى بمـــا فيها من

صحة وعلة ، وقوة وضعف ٠ اذ لا يمكن أن تكون لنا ذاتية اسـلامية فى دراسة علم النفس ، ولا يمكن أن تؤصل اتجاها اسلاميا فى علم النفس ، دون هذا الاستيعاب المتمكن ، والدرس الفاهم ، والمعرفة الواعية بعلم النفس المعاصر ٠

أما الشعبة الأخرى فى السبيل الذى أرتضيه فهى أن نفيد الى أقصى حد ممكن من دراستنا المستبصرة تلك لعلم النفس المعاصر ، نفيد منها فى التطبيق فى مجالات الحياة المختلفة بالنسبة الى الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم ٠ واننى لأرى فى هذا استجابة للدعوة الاسلامية التى تتردد قوية ناصعة فى كتاب هدايتنا الكريم الى أن نعد ما نستطيع من قوة ٠ والقوة هنا هى قوة التطبيق الرشيد ، والمسترشد بأى نتاج علمى فيه مصـلحة للفرد المسلم ولمجتمعه ٠

٥ ـ واننى لأرى أن من تحقق ذلك السبيل ، بشعبتيه ، فى موضوع نظرنا هنا بالنسبة الى المقرر المقترح عن « التفسير الاسلامى للسلوك » ، من تحقق ذلك السبيل أن نستبدل بذلك العنوان المقترح عنوانا آخر هو « التوجيه الاسلامى للشخصية » ٠ ولا يقف الأمر هنا عند مجرد تبديل عنوان بعنوان ، أو مصطلح بمصطلح ، فيعارض معارض بأنه لا مشاحة فى المصطلحات ، بل الأمر أبعد من هذا كثيرا ، ذلك لأنه يضرب فى صميم الموقف ، وجـوهر التوجيه ، وقوة التوجيه للمصطلح ، أو العبارة ، أو العنوان ٠ ذلك لأن المصطلح ، فى العلم خاصة ، له قوته الفعالة ، حتى وان خفيت ، وله تأثيره العميق ، حتى وان خفت ٠ ففرق كبير بين أن أقول « تفسير » وأن أقـول « توجيه » ، وفرق كبير كذلك بين أن أقول « سلوك » وأن أقول « شخصية » ، وفرق أكبر بين أقول « تفسير اسلامى » وأن أقول « توجيه اسلامى » ٠

٦ ـ هذا المقرر الذى أقترحه بديلا ، وأعنى به مقرر « التوجيه الاسلامى للشخصية » ذو صبغة تطبيقية ، اخلاقية ، اذ فيه ممازجة بشـكل طبيعى ، وسليم ، سواء نظرنا اليه من الناحية المنهجية ، أو من الناحية العلمية ، فيه ممازجة من نتائج الدراسات المختلفة فى علم النفس ، وبين التوجيه الاخلاقى للشخصية المسلمة ٠ وان فى هذا ، فيما أرى ، اقامة « « لتوجيه الشخصية المسلمة ، وصياغتها ، على أساس علمى متين ، ومتطور ، يمكن أن نفيد فيه

من كافة نتائج دراسات علم النفس المعاصر فى مجالاتها المتعددة ، وخاصة ما كان منها متصلا بـ : النمو ، الادراك ، التعلم ، الشخصية ، الارشاد ، علم نفس الجماعة الصغيرة ، علم النفس الاجتماعى ٠

٧ ـ وأتوقع أن يؤدى نمو مثل هذا المقرر ، وتطويره ، واثراؤه ، الى ارساء أصول ما يمكن أن أسميه « علم خلق characterolog اسـلامى وأن يكون فى هذا ، ان شاء الله ، دعم ، وتأمين ، للاتجاه الاسلامى فى علم النفس ، ذلك الاتجاه الذى أرى أنه لا ينشأ انشاء كاملا مرة واحدة ، بل يتبع سنة نشأة كل كيان حى ، تبدأ فى سكينه ، وتنمو فى أدب ، وتتقدم فى ثقة ، الى أن نرى ذلك الكيان الحى قويا قادرا على أن يبرز ذاتيته ، وأن يؤكـد فعاليته ٠ أما النشأة الكاملة ، أو الانشاء المتعجل ، فانه لن يخلع على الكيان الحى من الحياة الا هيئتها ، ومن الحيوية الا أضعفها ، ذلك بأنه سوف يكون كيانا مصطنعا لا روح فيه ، ووجودا أجوفا لا قلب له ، وشكلا مجمعة أجزاؤه بعضها الى بعض بلا تكامل أو ترابط أو تدامج ، فلا يكون له معنى يغنى ، ولا قيمة تفيد ، ولا دواما فيه نماؤه وبه جدواه ٠

٨ ـ وان فى المقرر الذى اقترحه ، وهو « التوجيه الاسلامى للشخصية» ، مماشاة ، وتوافقا ، مع الاتجاه التربوى الأساسى فى الاسلام الذى هو صياغة ، وتشكيل ، وتوكيد لسمات نفسية ، وخصائص أخلاقية ، وصفات اجتماعية ، بل اتجاهات معرفية وانفعالية لشخصية المسلم ، ناشئا وراشدا ، كأن فى هذا المقرر تزويدا للتربية الاسلامية بأسس نفسية ترفع من فعاليتها ، وتزيد من كفاءتها ٠ فهذا المقرر اذن ليس فيه تعارض أو تنافر مع تربية المسلم ، بل فيه انسجام واتساق مع الأصول الاسلامية التى تقوم عليها هذه التربية ، كما أن هذا المقرر ليس مناقضا ولا مناهضا ، ولا مخالفا أو مجاوزا ، لأصول العلم وقواعد مناهجه ٠

٩ ـ واننى أرى أن التربية عندنا ، سواء فى جانب ممارساتها العملية ، أو تصوراتها النظرية ، فى أمس الحاجة الى هذا العون النفسى الذى يمكن أن يقدمه المقرر الذى اقترحه ٠

١٠ ـ ثم أصل الى تصورى عن العناصر ، أو الموضوعات العامة التى

أرى أنه تتضمنها الدراسة فى هذا المقرر الذى اقترحه ، وأرانى فى غير حاجة الى توكيد أن ما اقترحه هنا من عناصر ، أو موضوعات ، قابل للتطوير ، أو التفصيل أو التقديم ، أو التأخير ، مادمنا محتفظين بالسـياق العام الذى يضمها ، وبالنسق الشامل الذى ينتظمها · أما هذه العناصر أو الموضوعات التى اقترحها فأعرضها كما يلى :

(أ) ماذا نعنى بالتوجيه الاسلامى للشخصية ؟

(ب) أهمية دراسته ·

(حـ) وسائل التوجيه الاسلامى للشخصية ، ووسائطه ·

(د) التوجيه فى جوانب الشخصية المختلفة :

١ ـ فى الجانب الحركى ·
٢ ـ فى الجانب المعرفى ·
٣ ـ فى الجانب الانفعالى ·
٤ ـ فى الجانب الاجتماعى ·
٥ ـ فى الجانب الاخلاقى ·
٦ ـ فى الجانب الجمالى ·
٧ ـ فى الجانب الدينى ·

(هـ) تكامل التوجيه ، وتكامل الشخصية ·

(و) الصحة النفسية للشخصية المسلمة :
الشخصية المسلمة فى مواجهة : مشكلات التوافق ·
الأزمات ، الاعتلال النفسى ·

(ذ) الرعاية النفسية للشخصية المسلمة :
١ ـ الارشاد النفسى للشخصية المسلمة ·
٢ ـ الوقاية النفسية للشخصية المسلمة ·

هذا يا أخى مما هدانى الله اليه ، وما اجتهدت فيه اجتهادا خالصا ، فيما أرجو ، لوجهه تعالى ، حرص على اسلامنا أن يبقى قويا ناميا ، وعلى علوم عصرنا ، ومن بينها علم النفس ، أن تبقى صحيحة سليمة ، لأنه لا سبيل لنا لنفيد منها حق الفائدة الا بصحتها وسلامتها · وانه بالاسلام القوى النامى ، وبالعلم الصحيح السليم ، نقدر على أن نحقق المجتمع المسلم المتوازن الفعال ، الذى يحيا فيه الفرد المسلم المتسامى بأخلاقيته ، المترقى لوعيه ، المتجمل بذوقه ، المتزكى بإرادته ·

واننى لفى انتظار مناقشات حول ما وصلت اليه ، والخير معقود دائما بالنية الخالصة ، والاجتهاد الصادق ، والجهاد العلمى الذى لا غاية له الا رضا الله جلت قدرته ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

١٤٠٦/٥/١٣ هـ
١٩٨٦/١/٢٣ م

سيد عثمان